الغضب

قصة بقلم سليمان فياض

كان كل شيء قد هدأ ، انفضت المظاهـــرة ، وانصرف الحراس والمتظاهرون . جمع الحراس فوارغ الرصاص النحاسية ، وركبـــوا عرباتهم ، بعد ساعة من الزمن ، حين تأكدوا ان كل شيء على ما يرام . وذهبت آخر سيارة اسعاف بالجرحى من الجانبين ، ليرقدوا مع جرحى الامس .

ووقف مع ظلال العصر الطويلة وحيدا . كان طويلا ونحيفا . وكان وجهه بيضاويا اسمر ، وعيناه واسعتين . وكان عابسا .

عادت الضجة الى الشارع . وعاود قلب المدينة نبضه المحمـوم ، كدوي موتور ضخم لا يكف عن الطنين . وراحت عربـات الترام والمترو والسيارات والاتوبيس تواصل مسيرتها ، ذهابا وعودة .

بنظرة حزينة ومهانة ، اخذ يرقب في تجهم ، مكنسة عامل البلدية. كان يكسح امامه الاحجار ، ويجمعها فـي كومات متتابعة الـى جانب الرصيف . مثله كان الحراس يكسحـون المتظاهرين ، والمتظاهـرون يكسحون الحراس . وفكر : ان حجرا واحدا منها لم يلق به على أحد ، وان حارسا واحدا لم يرمه ولو بنظرة . كانت أوتار صوته قد بحت من الهتاف . وفي اللحظة الفاصلة جرى الى شارع جانبي ، وقلبه يـدق بشدة ، وركبتاه ترتعدان . كان خائفا وجبانا ، واخذ يتابع المعركة مـن فوق الرؤوس ، وعبر الايدي والارجل .

اخذ يعبث بالسلسلة الذهبية المدلاة من عنقه ، وابهام يسراه في حزام بنطلونه المائل على خصره . وود ان يحدث نفسه . بحث عـن اسمه ، وعيناه تتابعان حركة المكنسة . فاكتشف انـه نسي اسمه . انزعج لذلك لحظة . ثم راقه الموقف . ابتسم في سره ، لانه صار بـلا اسم . فكر انه اللحظة مجرد واحد ممن يروحون ويغدون مـن حوله . وقال لنفسه :

« كان غضبك طفوليا ، نوقف بك عنـد حـد الصراخ . لماذا ؟ جبـان !! »

لم يرتجف لوقع الكلمة في داخله . واكد لنفسه :

« انني الآن غاضب » .

« لمـاذا ؟ » .

« لا اعرف . انني غاضب . وانني أيضا .. جبان » .

« لا تهرب . لماذا ؟ »

« هم ايضا كانوا غاضبين . ماذا فعلوا بشجاعتهم ؟ ألقوا احجارا، وطاردهم الرصاص من فوق الرؤوس ، فانصرفوا » .

« اسقط الرصاص واحدا كان يتفرج من الشرفة » .

استند بظهره الى العمود الذي يحمل لافتة محطة المترو . وقـال لنفسه :

« لو كانوا يعرفون جيدا : لماذا يتظاهرون ، لما انصرفوا ، ولو سقط ألف واحد وواحد » .

« ولانني لا اعرف لماذا انا غاضب ، انصرفت مبكرا . خرقت اصول اللعبة ، وتفرجت بدوري مع من سقط من الشرفة . اسقطته رصاصة ، واسقطتني كلمة » .

كان عامل البلدية يصنع كومة جديدة من الاحجار . وراح يلـوم نفسه بقسوة :

« هم فعلوا شيئا بغضبهم . هتفوا معك . القوا الاحجار التي لـم تلق أنت منها واحدة . هدأ غضبهم ، وبقيت أنت ، غضبا بلا اسم » .

وفكـر :

« كانت احجارهم ترجمني انا . وربما أيضا رصاصات خصومهم ».

وحدث نفسه :

« ماذا بقي لك اذن ؟.. نسيت اسمك ، ولم تعد تذكر بدلا منه ، سوى : الجبن ، والهوان ، والخوف » .

ودق صدره بقبضة يده ، واردف :

« .. وهذا الغضب المكتوم ، داخل هذا القدر » .

وزفر بحرقة ، وسار وحيدا . فكر : الى اين ؟ وبحث عن مقهى ، ورآه . مقهى شعبي صغير على الناصية يشرف علـى مفرق الطرق . وذهب الى المقهى وجلس . ومد أصابعه ، واخذ يعبث بشاربه . واحس بوخز الشعيرات الحليقة تحت انفه . وطـرق ماسح الاحذية صندوقه بفرشاته ، أمام عينيه ، فمد له ساقه . وظـل ساهما مشتت الفكر ، وعيناه تلتقطان المرئيات من حوله : أجـزاء متناثرة في دائرة الرؤيـة الثابتة ، لسيارة تمر ، وباب عمارة ، وطفل يعبر الطريق مسرعا قبل ان تدهمه عربة المترو ، وهذا الذي يمسح حذاءه ، وقد كشفت فتحة ثوبـه البلدي ، عن صدره المترب العاري ، صدر صعيدي جائـع ، جاء يبحث عن قوته في العاصمة . وكانت خلف دائرة الرؤية ، فـي قلب رأسه ، مكنسة عامل البلدية ، تكسح امامها الاحجار .

ـ وماذا بعد ؟

ـ لا شيء .

ـ كيف ؟ الكل غاضب . لا بد ان تحدث غدا مظاهرة اخرى .

ـ لا . لن يحدث شيء .

ـ لمـــاذا ؟

ـ لان احدا لا يعرف : لماذا هو غاضب ؟

ـ لا يعرف ؟ الكارثة التي حدثت ، ولا يعرف ؟ كيف ؟

كان يصغي وعيناه على الرجلين الجالسين الى المنضدة المجاورة .

ـ ما حدث فات يا رجل . لا يغضب الانسان من أجل شيء فات ، الا اذا كان شيئا شخصيا وخاصا . وليس ما حدث ، بعـد ، هـذا الشيء في حياة أحد . ما حدث كان كارثة ، صنعت غضبا ، أو فجرته . لكن : من أجل أي شيء مقبل هذا الغضب ؟

لم يجد في نفسه رغبة ليقول لهما شيئا . فحدث نفسه :

« تلك هي المشكلة . مع من : يسار ؟ يمين ؟ حـرب ؟ سلام ؟.. ثم .. لا تنس هذا القمع ، مع هذا الخوف الذي اصبح فـي حياتنا عادة ، كالتدخين ، كالفرجة على العروض السخيفة . انه غضب ممزق ، ممزق مزقا صغيرة » .

امس ، ذهب لزيارة مصطفى الجريح بالمستشفى . كـان وزملاؤه مضمدين بالشاش . ساعد هنا ، ورأس هناك . وكانوا سعداء بمـا صنعوا . يضحكون فجأة ، ويتجهمون فجأة ، ويتحدثون فـي كل شيء بغضب . وجاء احدهم ، وهتف بهم :

ـ انه عند الجريح الذي اصابته رصاصة طائشة ، وهو فـي قلب سيارته الكاديلاك .

وخرجوا مسرعين ، وبقي هو وحده يفكر . لقد زادت جرأة زملائه. لم يعودوا الآن يخشون الحراس ، ولا الجراح . ولا مواجهة أي مصير. الكارثة وضعت كل خوف آخر في نقطة الصفر ، الا خوفه هو .

وجاءوا به . واجلسوه على حافة سرير في مواجهتهم . وراحـوا

يسألونـه :

ـ قل لي : من أنا ؟

ـ نعم . من نحن ؟

ـ تلك هي المشكلة .

ـ الى أيـن ؟

ـ لا افهم .

ـ حرب ، أم سلام ؟

ـ لماذا ؟ وكيف ؟

ـ يسار ، أم يمين ؟

ـ نعم . ثم : لماذا ؟ وكيف ؟

ـ لا أعرف .

ـ مـاذا ؟

ـ أنت ؟.. ولا تعرف ؟

ـ كيف نعرف نحن ؟

ـ من يعرف اذن ؟

قال مصطفى :

ـ هو .. هو وحده يعرف .

ـ من هو ؟

ـ هو ؟.. من هو ؟

ـ قل لهم يا سيدنا .

ـ لست سيد أحد .

ـ من هو اذن ؟..

قال مصطفى :

ـ انه يعرف .

ـ فليعرف لنفسه . ليس لنا .

ـ اذن . فلنحاول نحن ان نعرف .

ـ نحن نحاول . أليس كذلك ؟

ـ تلك هي المشكلة .

وراحوا يضحكون .

وفكر ، انه ربما لن يعرف شيئا ابدا .

واليوم ، انفجرت مراجل الغضب مرة اخرى . غضب آخـر ، فوضوي ، واعمى .

ـ كانت معركة حامية .

ـ معركة ؟.. أي معركة ؟.. معركة بين ابناء البيت الواحد ؟!.. انها كارثة .

كاد أن يدخل في حوار مع جارية بالمقهى . النقمـة ، والحيرة ، والضباب ، لا تبوح لشفتيه بفكرة . واسلم ساقـه لماسح الاحذية . وفكر محدثا نفسه :

« من أنـا ؟ »

« غاضب » .

« ـ طيب . لا تسخر . عرفنا . وجبان ايضا . لكن ، مـا يكون اسمي ؟ »

واخذ يبحث في رأسه عن اسمه . نسي بطاقته الشخصية فـي البيت . اذن فليذكر كل شيء بهدوء . هـا هـي الجامعة ، والكلية ، والمدرج الذي يجلس فيه . ورأى نفسه ، وتعرف الى اصدقائه وزملائه واساتذته ، وبنات البوفيه الباحثات عـن حب او زوج ، والاخريات اللواتي يعيرن جيله بالضياع . وتذكر البيت ، وأباه ، وأمه ، واخوته . احمد اسم أبي . جدي مصطفى ، اسم أمـي هند . فأين ذهب اسمي أنا ؟ ها هم اخوتي . أمل ، ودنيا ، وشاكر . وهاأنذا لا اذكـر اسمـي أنا . وفكر ان يترك ذلك . الى ان يعود الى البيت . وقال لنفسه :

« سيناديني احدهم عفوا ، وعندئذ سأعرف اسمي ، وامسك به » .

وفكر ضاحكا في سره :

« لو ناداني احدهم من قبيل الهـزر ، بأي اسم ، سأصدقه . فليكن يا أنا ، ما دام الآخرون يصدقونه » .

قالت له أمه يوما :

ـ نعم . الدجاجة تأكل افراخها . عندما تصاب بلوثة .

حدث نفسه :

« أي لوثة ؟ جوع ؟ غضب ؟ جنون ؟ خوف ؟ نحن نتعارك معا . أي لوثة ؟ لا اعرف . لا اعرف سوى لوثة الغضب الجبان في صدري هذا»

جاء جرسون المقهى . ومسح بفوطته الكاروهات الحمراء المبتلة ، سطح المنضدة الرخامي ، وهو ينظر اليه ليطلب شيئا .

ـ قهوة . سادة .

انصرف الجرسون . ثم توقف ليحاسب جاريه . ثـم انصرفا . ضبط ماسح الاحذية وهو يرمق بسخرية سلسلته الذهبيـة ، فادخـل زرار قميصه في عروته . وسحب ماسح الاحذيـة عينيه ، واعطـاه قرشين ، فانصرف ، طارقا صندوقه بفرشاته . وقال لنفسه :

« نريد ان نحمل السلاح » .

« لـم ؟ »

« حتى لا تحدث كارثة أخرى » .

« ولو .. حاربنا بعضنا بالسلاح . سلاح بمقابل سلاح . بدلا من الاحجار بمقابل السلاح .. »

« حرب اهلية اذن . أنا نفسي قـد احارب نفسي ، وانتحـر بسلاحي » .

« لـم ؟ »

« طريقة سريعة ، للخلاص من غضب ، لا أعرف كيف اسير به » .

« هـو يعرف » .

« هـه . كان يعرف من قبل . فماذا فعل . لم سكتَ . قل » .

وضع الجرسون القهوة امامه ، وانصرف .

« لو حملت السلاح ، من يضمن أنك لا تستخدمه ضد نفسك » .

« تلك هي المشكلة »

« لا . بل مشكلة اخرى . مشكلة ألف » .

« والحل ؟ الفكر لا يحل ! التفاهم طريقه مسدود ! »

« الحل .. في الفعل » .

« نعم . الحل في الفعل . لكن . قد أخطىء » .

« لا بد من التضحية ، والمغامرة » .

ـ نحن في زمان لم يعد احد يعرف فيه سوى نفسه ، ولا يهتم الا بمصلحته ، لم يعد الناس للناس ، ولم يعد احد يهتم بأحد . كل يقول : نفسي ، وانا ومن بعدي الطوفان ، غباء الا يكون الانسان مثل الآخرين. سيفتقر هو ، ويفتنون هم ، سيهلك وينجون .

قال لنفسه :

« ينجون ؟.. ويأتي البربر ، ويأخذون كل شيء ، ويكسحوننا الى الصحراء ؟!.. سيكون سعيدا من يجد ظل خيمة » .

علقت أمه قائلة لابيه :

ـ هذا غضب .

ـ ممـن ؟

ـ مـن الله .

وراحت أمه تجمع بقايا طعام الغداء من على المائدة .

قال لنفسه ، مخاطبا اباه :

« الله غاضب أيضا ؟ أصحيح ما تقوله أمي ؟ »

وضع السكر في الشاي ، واخذ يقلبه . لم يدع قالبا واحدا مـن السكر . ففمه مر جدا . عاد يفكر ، انه جرى دون ان يرمي حجرا ، وقد كان واثقا من قلبه . واخذ يرقب الناس ، يروحون ويغدون ، كان شيئا لم يحدث ، يتغافلون عن الموت الذي يطاردهم ، يأكلـون ، ويشربون ، وينامون ، ويتحركون بلا همة ، ويعملون بكسل ، ويتكالبون على المال ، ويخافون جيدا ، ويستسلمون للتيار ، أي تيار .

« يا لها من كارثة » .

حدث نفسه ان بوسعه الآن ان يرمي هذا الحجر .

« على من سترميه ؟ »

« شرطي مرور مثلا . أي انسان أرى في وجهه علامة جبن ، او انتهازية » .

« كيف تعرف هذا الوجه ؟ قد يكون بريئا » .

« بريئا ؟! من منا البريء ؟ البريء هو الثائر . حتى الصمت خطيئة » .

« قد يكون جاهلا ، ولذلك يصمت » .

« من في زماننا يجهل الكارثة . من في زماننا لا يحس بالخطر المقبل : الموت » .

وقال لنفسه :

« ارم هذا الحجر على أي أحد ، وسوف ترى . سيصيب واحدا منهم دائما . ارمه على نفسك مثلا ، سيصيب جبانا . أليس كذلك ؟ »

طوح يده ، فاندفع الكوب ، وتكسر زجاجه على الارض . وجثم لحظة ، وظل هادئا . جاء الجرسون وانحنى لينظف الارض . نهض ، ودفع ثمن القهوة والكوب الذي تحطم ، وانصرف . وسمع الجرسون يقول من خلفه :

ـ طويل وأهبل .

وواصل سيره . قالت له في بوفيه الكلية :

ـ لا تذهب معهم . ـ لماذا ؟

ـ اخشى ان افقدك .

ـ ستجدين غيري ، مجرد اختلاف في الاسماء .

نهضت غاضبة ، وانصرفت . جاءت زميلة اخرى ، وجلست . قالت ، أيضا ، نفس ما قالته أمه :

ـ لا تذهب معهم . ـ لماذا ؟

ـ ستنتهون الى لا شيء . اصبحنا صفرا . الحراس الآن هم الواحد والعشرة .

ـ كانوا أيضا الواحد والعشرة .

ـ وسوف يظلون كذلك دائما .

قال لها وهو ينهض : ـ سنرى .

وقال لنفسه وهو يمشي :

ـ سنرى .

بلغ محطة الترام . وحاول ان يتذكر اسمه . وكانت الشمس تغرب في الميدان البعيد . « محطة » . وتوقف تحت اللافتة . استند الى عمودها الحديدي . ووقعت عيناه على اكوام الاحجار ، بجوار الرصيف المقابل . قال لنفسه :

« الآن . أنا بلا اسم . مجرد غضب ، بلا هدف ، ولانني جبان ، والجبن خطيئة . وخائف ، والخوف اكبر الخطايا .. سأرمي نفسي بحجر .

اسرع يعبر الطريق ، وانتقى اكبر كومة ، ووقف الى جوارها ، وظهره الى سور حديقة بيت ، وانحنى ، وتناول حجرا .

اخذ يقذف كل ما حوله : المارة ، وزجاج السيارات ، ونوافذ الترام ، ومصابيح الشارع الفلورسنت ، والشرفة التي سقط منها الرجل برصاصة طائشة ، وامرأة حاملا ، وفتاة تمضغ لبانة . وراح الكل يجري بعيدا . هدأت ضجة الآلات التي تسير ، وارتفعت اصوات آدمية حائرة .

« الجبناء » .

لكنهم سرعان ما طرحوا جبنهم وعادوا : الشرطي ، والحفاة ، والافندية ، وسائقو السيارات ، وكمساري الترام ، وراحوا يردون اليه أحجاره .

« فلنتعلم معا ، كيف نرمي حجرا في وجه الخوف » .

وفكر انه الآن يرجم ، لانه غاضب .

وعندما همد ، ونفدت كومة الاحجار ، جلس على الرصيف ، وحاول ان يتذكر اسمه ، ودائرة الليل والاقدام تضيق من حوله ، وخيط من الدماء يسيل من جرح غائر في جبينه .

سليمان فياض

التحدي الصهيوني

(اضواء على اسرائيل)

بقلم جاك دومال وماري لوروا

ترجمة نزيه الحكيم

« ان حكاية الذئب والحمل هي ، في خطوطها العامة ، حكاية النازية . وهي كذلك حكاية الصهيونية ، هذا الخطر الجديد الذي يهدد اليوم سلام العالم ، ويهدد ما لا يزال للانسانية من قيم سامية .. ومطمحنا في هذا الكتاب هو أن نلقي مزيدا من النور على قضية جوهرية ، يرتبط بها مصيرنا في ما يأتي من الشهور والاعوام ...

« ان وجهة النظر العربية هي مئة في المئة وجهة العدالة والحق ، وهي أيضا بالتالي وجهة الواجب . وكل العرب يعرفون ذلك ، وكثيرون من الاسرائيليين يعرفونه أيضا ، ولكنهم مضطرون للصمت ، وكثيرون من « اليهود » في العالم يشاركونهم هذا الرأي ...

« وجمال عبد الناصر كان على حق حين قال : « ان الصهيونية ليست تحديا لشعب فلسطين وللامة العربية ، بل هي تحد للانسانية » .

هذا ما يقوله مؤلفا الكتاب جاك دومال وماري لوروا اللذان يفضحان في فصول شيقة صادقة اساليب اسرائيل وخداعها واجرامها ... والجدير بالذكر ان المؤلفين هما صاحبا كتاب « جمال عبد الناصر ، من حصار الفالوجة الى الاستقالة المستحيلة » .

وكتابهما هذا الجديد « التحدي الصهيوني » يصدر في اللغة العربية قبل صدوره في اللغة الفرنسية الاصلية .. والواقع ان نشره باللغتين الفرنسية والانكليزية يلاقي صعوبات كبيرة بسبب تأثير أجهزة الاعلام الصهيونية على مؤسسات النشر في العالم الغربي كله ... من هنا أهمية هذا الكتاب وخطورته ...

صدر حديثا **الثمن ٣٠٠ ق.ل.**